مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 9، العدد 34 (ربيع 1998)، ص 104

ذكرى التهجير بعد خمسين عاماً
(شهادات)

الشهادة الأولى[1]

"أنا الذي أمضيت هذا العمر كله منتظراً، أرى أنّ حظّي أفضل من حظّ سواي"

ـ الاسم: **أسعد أبو العردات (أبو زيد)**
ـ العمر: **68 عاماً**
ـ مكان الإقامة الحالي: **صيدا/لبنان**
ـ البلد الأصلي: **حيفا**
ـ تاريخ الاحتلال: **22 ـ 1948/4/23**

إن أخواي حسن وأحمد وأختي حسنية، والثلاثة أكبر مني، ولدوا في كفرتّا، وهي قرية كانت تملكها عائلة سرسق اللبنانية مع قرى أُخرى في فلسطين. كان أبي يعمل هناك، ويقيم مع أمي وإخوتي ببيت صغير في القرية. أنا وأخي الأصغر، رزق، ولدنا في بيت اشترى أبي أرضه في أرض اليهود وأقام عليها الغرف الثماني. مالك الأرض، ومساحتها كانت خمسمئة متر، هو أبراهام خلفون الذي كان موظفاً مرموقاً في بلدية حيفا. كان يُشاع أن اليهود لا يبيعون أملاكهم في فلسطين ولم يكن هذا صحيحاً بالتمام، إذ لم يلبث خلفون أن باعنا أرضه بعد إلحاح قليل من زوجته التي كانت تطعم أولادها حليباً من بقراتنا وبيضاً من دجاجاتنا.

أنا وأخي الأصغر رزق ولدنا في هذا البيت الذي قسّمه أبي نصفين: أحدهما للسكن والآخر للإيجار. توالى على الغرف الأربع مستأجرون كثيرون قدموا من لبنان ومصر والأردن للعمل في حيفا. أمّا غرفنا نحن فكانت تكفينا نحن الأولاد الخمسة مع أبي وأمي. بعد أخي رزق ولدت أمي أولاداً آخرين لم يبلغ أطولهم عمراً العام. أذكر أنني

[1] أعدّها حسن داوود. وقد أُجريت المقابلة في صيدا، في كانون الثاني/يناير 1998.

كنت ألاعب أحدهم، وهو عدنان، صغيراً، كما كنت ألاعب أختاً لي اسمها سنية ماتت وهي بعد لم تتجاوز شهرها العاشر.

لم يعش لوالديّ مولود بعد أخي رزق. كانت أمي تقول إن رأسه "أقشر"، أي لا أحد يعيش من بعده. وهو، في أية حال، لم يهنأ في حياته التي عاشها فقيراً، تأتيه المصائب الواحدة بعد الأُخرى.

أدخلنا أبي المدرسة جميعاً. من وُلدوا قبلي درسوا في مدرسة الهندي التي لا يبقى تلاميذها فيها بعد المرحلة الابتدائية. أخي أحمد لم يطق المدرسة فكان يفرّ منها ليشتغل في الأفران أو في الباطون أو في أيّ شيء آخر. أخي رزق أيضاً تعلّم فقط حتى الصف الرابع الابتدائي في مدرسة الإرشاد، معي، وكان دائماً كسولاً لا يطيق التعلّم، "وفجّ الرأس" كما كان يقول أبي.

أنا، في مدرسة الإرشاد التي كان يديرها الأستاذ سامي صعب، بلغت الصف السابع الابتدائي. في نهاية تلك السنة، كان عليّ أن أختار بين أن أذهب إلى عكا لأكمل دراستي وبين أن أشتغل لأساعد في إعالة الأسرة. في تلك السنة، وكان عمري خمسة عشر عاماً، ساءت صحة والدي فكان ذلك سبباً إضافياً في توجهي نحو العمل. بعض من كان معي في مدرسة الإرشاد أكملوا علمهم، وبينهم ابن خال لي صار يذهب إلى عكا كل يوم بالقطار.

اشتغلت في دائرة المؤن. في أعوام الحرب تلك، وزّع الإنكليز بطاقات تموين كان يشتريها الناس ويأخذون بموجبها حصصهم من المؤن آخر كل شهر. اشتغلت مراسلاً لهذه الدائرة أنقل معاملاتها إلى التجار والدوائر. أمّا راتبي فكان إحدى عشرة ليرة فلسطينية شهرياً، وهذا مبلغ لا بأس فيه لشغل ولد في الخامسة عشرة من عمره.

كان مركز الدائرة قريباً من مكاتب شركة "شل" التي تُزوِّد السفن الراسية في الميناء نفطاً. قال لي الشباب في "شل"، بعد أن صاروا يشاهدونني كل يوم، أن آتي كي أشتغل في شركتهم. هناك أُعطيت أجراً هو أربع وعشرون ليرة فلسطينية في الشهر، وهذا مبلغ كبير إذا ما قيس، مثلاً، بأجر البوليس الذي لم يزد على ثماني عشرة ليرة أو عشرين. اشتغلت في "شل" ساعياً كما في [دائرة] التموين. كان موظفو الشركة يرسلونني إلى البنك وإلى الميناء الذي أدخله بتصريح خاص استصدرته الشركة لي. منذ شهور عملي الأولى، وثقت إدارة الشركة بي وكانت مكونة من يهود وعرب ورئيس إنكليزي اسمه إيثوود قتلته العصابات اليهودية فيما بعد هو ورفيق له من ضمن

موجة اغتيالات طالت البريطانيين يومذاك. ولقد فوّضت الشركة إليّ، لثقتها بي، سحب الرواتب كلها من بنك باركليس آخر كل شهر. في إحدى المرات هاجمني لصّان ظلا ينهالان عليّ ضرباً بالعصيّ حتى سقطت أرضاً فركضا بالحقيبة التي تحتوي على ثلاثمئة ليرة فلسطينية تقريباً. ظن اللصّان أنني متّ، لكنني قمت أتعقّبهما وقد تبعت منهما حامل الحقيبة بعد أن افترقا واحداً في اتجاه سينما عين دور، والآخر في اتجاه مدرسة السيليزيان. أمسكت باللص وهو يحاول إفراغ ما في الحقيبة في كيس كان معه. كان الدم ينزف من رأسي، وإذ ظهر عسكري بريطاني قادماً من أحد المفارق فأخذت أصرخ Thief.. Thief [لص، لص]، فاصطحبنا العسكري معاً إلى مركز البوليس الذي منه نُقلت إلى المستشفى الحكومي حيث أُسعفت.

حيفا كانت غاصة بالعصابات الكثيرة من يهود وعرب. اختص اليهود بسرقة المصارف وصناديق مكاتب التحصيل التي منها مكاتب شركة البريد مثلاً. كانت عصابات اليهود منظمة، أمّا عصابات العرب فتشكلت من أفراد متفرقين قليلين اقتصرت سرقاتهم على نهب المارة في الطرقات. في تلك الأعوام، كانت حيفا مدينة عامرة مزدحمة تضمّ مقيمين من جميع أنواع البشر يأتونها للعمل. ميناؤها كان مركز نقل وإبحار ومحطة بحرية عسكرية وهو، لأهميته، كان يوفر الخدمات لفلسطين كلها لا لحيفا وحدها. الميناء، في أعوام الحرب تلك، أدى دوراً أساسياً في تمويل جيوش الإنكليز. ونحن كنا نقول إن ميناء حيفا لا يقابله حجماً وأهمية إلاّ ميناء الإسكندرية. أمّا القادمون إلى العمل، في الميناء وفي ما يتيحه دوره من أعمال في المدينة، فجاؤوا من مختلف مناطق فلسطين ومن سورية والأردن والعراق واليمن ومصر، وكان المصريون كثيرين جداً هناك، ومن لبنان كان هناك كثيرون طبعاً؛ وقد تعرفت إلى رجال من صيدا، مثلاً، وهم من عائلات البابا وحنقير وزنتوت ونقوزي وغيرهم من أهل صيدا والجنوب اللبناني الذين قصدوا حيفا للعمل.

في حيفا لم يلقَ القادمون صعوبة في الإقامة، إذ كان كل المخاتير في أحيائها يعطون، لكل طالب، شهادة تقول إنه من مقيمي حيفا. بعد ذلك يذهب حامل الشهادة مزوَّداً بصورته الشخصية إلى مكتب حاكم اللواء الإنكليزي ليحصل فوراً على هوية فلسطينية. آنذاك، في سنة 1946، بلغ عدد المقيمين بحيفا من يهود وعرب وسواهم نحو مئتي ألف نسمة. في الفترات العادية، لم تكن الحزازات تفرّق بين اليهود والعرب. في شركة "شل" حيث عملت، كما في دائرة التموين، لم تقم بين الموظفين العرب

والموظفين اليهود أية مشكلات بسبب اختلافهم. أمّا أنا، الساعي، فلم ألق انتهاراً من الموظفين اليهود، وإنْ كنت أشعر بأن الموظفين العرب يعاملونني معاملة أفضل. وأذكر أنني، في أيام عطلتي، كنت أذهب كي أشاهد أفلاماً في سينما "أنفي" الواقعة في حي اليهود "هَدار هكرمل". أمّا رواد السينما فمختلطون، عرباً ويهوداً. كانت الحياة مستقرة بيننا وبينهم، لكنها كانت تضطرب عندما تقوم الثورات التي منها ثورة 1936 التي استمرت حتى سنة 1939. تلك الثورة فصلت ما بين الفريقين في السكن. انتقل اليهود جميعهم من منطقتنا إلى حي هدار هكرمل ولم يعودوا قط إلى حيث كانوا من قبل. امرأة واحدة فقط عادت فأقامت بين العرب وكان اسمها سعدى اليهودية. كان لها فرن تخبز فيه خبزاً إفرنجياً. أمّا زوجها، الذي كان يشتغل عندها، فكان يركب الحمار الذي وُضع على جنبيه صندوقان حديديان يُملآن أرغفة لتباع هناك في هَدار هكرمل؛ ذلك بأننا، نحن العرب، لم نكن نحبّ الخبز الإفرنجي.

أرض اليهود صار جميع سكانها من العرب بعد أن هجرها اليهود في إثر ثورة 1936. وقد صار اسمها، بسبب ذلك، اسماً على غير مسمّى. لذلك أُطلق عليها، بعد فترة، اسم "شارع الناصرة". في جوار البيت، كما في المدرسة، لم نعد نصادف إلاّ عرباً ولم نعش إلاّ مع العرب. كان علينا أن ننتظر حتى نكبر، وكان قد مضى وقت على الثورة، لنخرج إلى هدار هكرمل حيث كنا نشاهد اليهود في الشوارع وفي السينما. لكننا، آنذاك أيضاً، لم نختلط بهم. ليس أكثر من أن ندفع ثمن تذكرة الدخول للموظف اليهودي وننتظر من ثم، هناك عند مدخل الصالة المعتمة، ليُجلسنا يهودي آخر على مقاعدنا.

لم أكن أخاف في هدار هكرمل لأن الحال كانت مستقرة عندهم من دوننا، كما كانت مستقرة عندنا من دونهم. لكل منطقته، وإنْ أغرانا الذهاب إلى هناك للتسلية، إذ لم يكن لدينا نحن العرب سينمات أو ملاهٍ نتردّد إليها. نحن في شارع الناصرة (حي اليهود سابقاً) بقينا من دون سينما أو ملهى حتى سنة 1947 حين أقيم مبنى سينما الوداد التي لم تعرض فيلماً واحداً بسبب اندلاع الحوادث ونزوحنا.

بلدية حيفا هي التي بنت الملاهي في هدار هكرمل. أمّا نحن فكنا من دون ملاه، على الرغم من أن البلدية كانت مشتركة بيننا وبينهم، وعلى الرغم من رئيسها اليهودي الذي ما زلت أذكر اسمه: شبتاي ليفي. شبتاي هذا كان يميّز في إدارته بين المنطقتين العربية واليهودية. حيّنا، على الرغم من إصرار اليهود على اسمه الأول، كان

متروكاً مهملاً. أمّا هدار هكرمل فكان يُنظَّف ويُسوَّى ويزيَّن، وفيه أقيم بستان الملاهي الذي وُضعت فيه الألعاب وأكشاك البيع بين الفسحات والشجرات.

في العمل فقط تكلّمت مع اليهود كلاماً يتعدّى العبارات السريعة: في [دائرة] التموين أولاً ثم في شركة "شل". في السنوات التي تتالت بعد سنة 1939، سنة انتهاء الثورة، هدأت الأحوال بيننا كما قلت، ثم إن أعوام الحرب العالمية الثانية دفعت البريطانيين في فلسطين إلى بذل المستطاع كي لا تقوم الاحتكاكات بيننا. كان البريطانيون يقولون أنهم مشغولون بالحرب ولا يريدون أن يتلهّوا عنها بالمشكلات الداخلية.

أنا لم أكن أبغض اليهود في عملي وهم عاملوني معاملة موظف صغير بينهم. طبعاً، كنت أشعر بأن الموظفين العرب يعاملونني معاملة أفضل، وكان ذلك طبيعياً في ما أحسب. مع اليهود، أو مع الموظفين الصغار بينهم كنا نتبادل المزاح على الرغم من معرفتي، ومعرفتهم أيضاً، أننا قد نذهب، بعد انتهاء العمل، مسلحين إلى الجبهات. وما زلت أذكر جلوسنا، أنا وسائق إحدى سيارات الشركة، عند باب المكتب ذات صباح، وكنا نتمازح فأقول له: "غداً سنرميكم في البحر يا شلتسر." وكان يجيبني: "غداً نرى يا عردات من سيرمي الثاني في البحر." شلستر هذا أصيبت عينه برصاصة بينما كان مرابطاً على جبهة اليهود بعد دوام عمله، وصار يأتي بعد ذلك إلى الشركة مغطياً عينه العوراء بشريطة جلدية شبيهة بتلك التي يضعها موشيه دايان.

حين أُعلن قرار التقسيم في الإذاعة اندلع رصاص سمعناه في الغروب، وسمعنا من بعده أن العرب واليهود اشتبكوا على جسر روشميا. تلك الرصاصات فعلت فعلها الفوريّ، فالتزم الناس أماكنهم وتوقفوا عن الاختلاط، لا في شارع الناصرة وهدار هكرمل فقط، بل أيضاً في مناطق حيفا جميعها. ثم صار الاختلاط غير ممكن بعد ذلك، إذ أقيمت المتاريس بين المناطق وأخذ الرصاص يلعلع كل يوم، في الليل وفي النهار. بعد ذلك بأيام قليلة أخذ اليهود يصيبون الأحياء العربية بالبراميل التي يحشونها بالمتفجرات ويدحرجونها من الأعلى، حيث هم، لتنفجر عندنا. كان رجال حولنا يتساءلون بعد كل برميل ينفجر، من أين جاؤوا بفكرة البراميل ومن علّمهم ذلك، إذ إن اليهود اهتدوا إليها بسرعة وقبل أن يوصلهم تصعيد الوضع إليها.

بدأت في تلك الأثناء أيضاً موجة تفخيخ السيارات على نحو ما جرى في لبنان فيما بعد. إحدى السيارات المفخخة انفجرت في شارعنا فقُتل ناس كثيرون، بينهم جبر

عبود الذي كنا نعرفه. كما انفجرت سيارة أُخرى، بحسب ما أذكر، بالقرب من الحسبة وسقط جرّاء الانفجار قتلى كثيرون؛ وهذا، طبعاً، إضافة إلى سيارات أُخرى كثيرة.

على الرغم من هذا الوضع المتأزّم والمتفجّر والذي انفصل فيه اليهود والعرب كل في منطقته، ظلت مكاتب شركة "شل" تفتح أبوابها كل يوم لموظفيها من عرب ويهود. بل إن المنطقة التي اسمها الكولونية الألمانية، والتي تقع فيها مكاتب الشركة، ظلت محيّدة عن النزاع إذ كانت تُعَدُّ منطقة إنكليزية يديرها الإنكليز ويمنعون الآخرين من التدخل فيها. "نحن هنا نأتي للعمل"، كان يقول لنا المدير الإنكليزي، قاصداً أن لا شأن لنا هنا بما يجري في مناطق حيفا الأُخرى. هكذا كنا، عرباً ويهوداً، نلتقي يومياً ونشتغل معاً من دون مشكلات واستفزازات، لكن من دون مودة أيضاً. أمّا عبورنا الطرقات التي توصلنا، أو توصل كل منا، إلى الكولونية الألمانية فقد كان آمناً كون الكولونية تقع وسط حيفا، أي في المنطقة التي تفصل طرف منطقة العرب عن منطقة اليهود. بعض من نعرفهم من أهل حيفا كان يقول، بعد النزوح، إن اختيار الإنكليز لتلك المنطقة ربما يدلّ على بعد نظرهم ومعرفتهم بما سيجري لاحقاً من أحداث.

نحن العرب لم نكن خائفين في حيفا على الرغم من البراميل والسيارات المفخخة؛ كنا نقول إن هذا الذي يفعلونه هو من أفعال الجبناء. حتى إن اعتقادنا ذاك بجبنهم زوّد بعضنا شيئاً من الاستخفاف حتى تجاه السيارات المفخخة، إذ لم نكن نتصور من يفعلون ذلك إلاّ هاربين راكضين، بعد فعلتهم، لخوفهم منا. في شجاراتنا السابقة معهم كنا قد اختبرنا جبنهم. كان العربي يرفع سكينه في هدار هكرمل في وجه أحدهم فيفرّون جميعاً من الشارع عند رؤية السكين. أمّا في ما يتعلق بتنظيمهم العسكري وبالتدريب الذي حصّلوه تحت إشراف الإنكليز بغرض تجنيدهم للقتال في الحرب العالمية الثانية، فكنا نقول إن الأوان، أي أوان المجابهات العسكرية المنظمة، لم يحن بعد. ثم إننا، من ناحية ثانية، اعتقدنا أن بلوغ تلك المرحلة من المواجهة سيقتضي تدخّل الجيوش العربية طبعاً.

حين كانت مدينتنا حيفا متحصّنة وراء متاريسها كانت مناطق كثيرة من فلسطين تشهد تحركاً على الجبهات. في البداية، سقطت طبرية في أيديهم، ثم طوّق العرب القدس وحدثت معركة القسطل الشهيرة التي استشهد فيها عبد القادر الحسيني. في تل أبيب ويافا جرت اقتحامات أيضاً. ونحن هناك في حيفا، كان شعورنا بأننا نحقق الانتصارات عليهم. وكان هذا، حتى ذلك الحين، صحيحاً إلى حد بعيد. لكن مع

توالي الاقتحامات أخذ يستبد بنا شعور معاكس نظراً إلى ما كان يصلنا من أخبار. كان اليهود أكثر تسلّحاً وتنظيماً من العرب بكثير. فالأسلحة التي زوّدهم بها الإنكليز في أثناء تدريباتهم في ليبيا أُبقيت معهم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. أمّا "الفيلق اليهودي" فكان مشهوراً إذ ظل تنظيمه قائماً بعد عودته من الحرب لتي لم يتلقّ تدريبات لها إلاّ في فصولها الأخيرة، أي حين شارفت على الانتهاء. لقد أُبقيت أسلحة ذلك الفيلق مع رجاله اليهود. أمّا المتطوعون العرب مع الإنكليز، في تلك الحرب، فقد جُرِّدوا من سلاحهم بعد انتهائها وهم لم يُعطوا، لحظة تسريحهم، إلاّ قبّعات كحلية وبَدْلات كان نصيب كل متطوع اثنين منها، كما أُعطي المتطوع تعويضاً مالياً لقاء خدماته، ما لبث أن بدّده وأنفقه.

منذ مطلع سنة 1948 فصلت القوات البريطانية بيننا وبينهم في حيفا، فركّزت بين المتاريس المقامة دبّابات ومصفّحات امتدت في موازاة خطوط التماس. وكان الهدف الذي أعلن لهذا الفصل إيقاف المناوشات والمعارك المحتملة الوقوع رداً على ما يجري في مناطق فلسطين الأُخرى. لكننا عرفنا آنذاك أن هذا الفصل ليس حيادياً وأنه في غير مصلحتنا نحن العرب، إذ سيجري الردّ علينا إن أطلقنا نيراننا على اليهود، بينما إن حدث عكس ذلك فلن يكون موقف الإنكليز هو نفسه. وقد أثبتت الأحداث صحّة ذلك في أية حال. إذ بينما كانت الدبابات جاثمة وفاصلة بين المنطقتين كان يجري هناك، حيث اليهود، الإعداد والتنظيم العسكريان.

بعد طبرية، كانت حيفا المدينة الفلسطينية الأولى التي خطّط اليهود لإسقاطها. في أثناء ذلك كانت مناطقنا العربية قد خلت من العمال العرب غير الفلسطينيين ولم يبق منهم بيننا إلاّ متطوعون قليلون حملوا السلاح مع المقاتلين وراء المتاريس. قلَّ كثيراً عدد المقيمين بالمدينة في تلك الأثناء، كما أن حركة ناسها الباقين خفّت وتضاءلت، وهذا طبيعي بسبب تحوّلها من مدينة تجارية مهمة إلى ساحة للمعارك المحتملة. في الميناء تضاءل كثيراً عدد السفن الراسية، أمّا العبّارات التي تحمل البضائع من السفن إلى رصيف الميناء فظلت جاثمة في أماكنها بلا حركة.

كانت القوات على جبهتنا تضمّ مقاتلين سبق أن قاتلوا مع الجيش البريطاني. كما كان بين أفرادها رجال بوليس فلسطينيون وحرس حدود ممن تلقّوا بعض التدريب بما يقتضيه نوع عملهم، طبعاً إضافة إلى المتطوعين الآخرين من فلسطينيين وبعض العرب. وكان ينظم هؤلاء جميعاً، على ما أذكر، ضابط أردني نسيت الآن اسمه.

بدأت الاقتحامات اليهودية مباشرة بعد الانسحاب المفاجئ للقوات البريطانية من خطوط التماس. ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا ينتظرون أن يكتمل استعداد اليهود ليخلوا لهم المجال. جرى الاقتحام الأول بتقدّمهم إلى مبنى مجلس الإصلاح. وشاركتْ في الاقتحام مصفحات يهودية فاجأت المتطوعين العرب فصاروا يطلقون عليها الرصاص من بنادقهم. في مدة لا تتعدّى نصف النهار سقط الموقع في أيديهم، أمّا المقاتلون العرب المرابطون فيه فاستشهد بعضهم وتراجع من بقي منهم حياً إلى المنطقة العربية.

بعد سقوط مجلس الإصلاح، المطلّ على شارع الناصرة حيث نقيم، أصبحنا عرضة لرصاص اليهود ولهجومهم المحتمل. بعد أيام من احتلالهم الموقع ذاك أصيب الشيخ صالح، إمام جامع الحاج عبدالله، برصاص قنصهم بينما كان خارجاً من الجامع فسقط قتيلاً. دبّ الذعر في نفوس الأهالي، والبيوت التي اعتبرت خطّ دفاع بعد سقوط مجلس الإصلاح جرى إخلاؤها سريعاً وأُبعد من كانوا فيها إلى مناطق أكثر أمناً. لكن بعد مضي أيام قليلة أُخرى بدأت جولة اقتحامات جديدة لم تقتصر هذه المرة على منطقة واحدة في حيفا وإنما طالت مناطقها كلها. صار التراجع أسرع في اتجاه منطقة الميناء ـ وهي طبعاً حدّ حيفا الأخير ـ التي ما زالت آمنة لوقوعها تحت سيطرة الإنكليز وحمايتهم. أنا وعائلتي تراجعنا مع هؤلاء المتراجعين.

لم ينتظر الناس سقوط المناطق التي تتعرّض للاقتحام، إذ كان الهلع تمكّن منهم بسبب ما كان يصلهم من أنباء عمّا يجري في أنحاء فلسطين. قبل أن نُخلي حيفا كنا علمنا بالمجازر التي حدثت في دير ياسين وفي حواسة وغيرهما. كما أنه بلغنا أن اليهود ذبحوا تواً رجالاً قبضوا عليهم في ناحية الجريني. كانت المنطقة العربية من حيفا مصابة بالهلع ولم تأت الاقتحامات إلاّ لتخرج الناس عن أطوارهم وتذهب بهم، متراجعين مذعورين، إلى البحر. في فترة المناوشات التي استمرت نحو خمسة أشهر، من تشرين الثاني/نوفمبر 1947 إلى نيسان/أبريل 1948، كان هناك من يسعى لتنظيم أمور الناس. وقد تشكلت لذلك جمعية في عموم فلسطين اسمها "جمعية المقاومة"، كان فرعها عندنا معروفاً باسم "قيادة حيفا"، وكان على رأسها رجل اسمه يونس نفاع عمل موظفاً في البلدية حتى اندلاع الاشتباكات. كما كان هناك جمعية قدّمت المساعدات إلى الناس، وقد سبق قيامها قرار التقسيم بكثير. هاتان الجمعيتان، وخصوصاً أولاهما، أمنتا للمقاتلين ذخائر وللناس أغذية ومؤناً. كان هناك بعض

التنظيم في الفترة التي سبقت قيام اليهود باقتحاماتهم الأخيرة، لكن، في عملية النزوح، لم يكن أحدٌ ينظّم أحداً. لقد خرجت العائلات هاربة من دون أن يدلّها دليل حتى على طرقات التراجع. أمّا من كان اقتنى بارودة منهم، مثلي أنا الذي اشتريت بارودة من التجار، شأن سواي، بثلاثين ليرة إنكليزية، فتركها في بيته، إيثاراً للسلامة.

في الميناء كان البشر مزدحمين وملتصقين بعضهم ببعض. لم يكن أحد يحمل شيئاً، إذ إن ذعر الفرار حال دون أن يُثقل الشخص نفسه بشيء يحمله. كان شيء بقي في البيوت. في الميناء بقينا منتظرين أربعة أيام أو خمسة إلى أن شاع بيننا أن حيفا سقطت. عندها بدأ الأهالي ما يمكن تشبيهه بفرارهم الثاني، لكن من رصيف الميناء إلى العبّارات والمراكب هذه المرة.

نحن، أنا وأمّي وأخي الصغير رزق، كان نصيبنا العبّارات التي هي بلا درابزين ولا حواجز لاقتصار استعمالها على نقل البضائع من السفن. أمّا أختي حسنيّة وأخواي حسن وأحمد فتدبروا أمرهم في المراكب. وأمّا أبي فكنا من دونه لأنه كان توفي سنة 1946، أي قبل أن تبدأ محنتنا في حيفا. العبّارة التي كان ركوبها من نصيبنا أنا وأمي وأخي رزق لا تذهب إلى أبعد من عكّا، بينما من ركبوا المراكب وصلوا بها إلى صور وصيدا في لبنان. كانت العبارة تتسع لمئتي راكب تقريباً، وتستغرق رحلتها إلى عكا نصف نهار، ثم تعود إلى حيفا لتنقل فوجاً آخر من الأفواج المنتظرة هناك. ومثلما كان الخروج فوضوياً من المدينة إلى الميناء، كان ركوب البحر فوضوياً أيضاً إذ كان التسابق هو الذي يضع أناساً في هذا الفوج وأناساً آخرين في الفوج الذي يليه.

كنت أعرف عكا من قبل، وقد سبق أن زرتها مراراً للتسلية ومشاهدة السينما وللعب كرة القدم. كانت لم تزل محاطة بالسور القديم نفسه الذي بناه الجزار واستعصى اقتحامه على نابليون بونابرت. أفرغتنا العبّارة في الميناء الواقع خارج السور، ومن هناك دخلنا المدينة من بوّابتها التي تقع في أحد جوانبه. في المدينة أخذ النازحون يتوزعون على المساجد. أمي وأخي رزق ذهبا إلى المسجد مع النساء وأولادهن، أمّا أنا فذهبت إلى مقهى في المدينة لم أعد أذكر إن كان الناس يسمونه باسم ما. في هذا المقهى نمت ثلاث ليال على الكرسي، قاعداً، ولا أقوم عنها إلاّ حين يطلع الصباح فأذهب إلى الجامع لأرى ما إذا كانت أمي وأخي بحاجة إلى شيء. بحثنا

عن أختي وأخواي فلم نجدهم، واعتقدتُ أنا أن المراكب التي استطاعوا الصعود إليها لا بد من أن تكون حملتهم إلى لبنان.

في عكا لم نكن بحاجة إلى مساعدة أحد، إذ كانت أمي أخرجت معها جميع ما نملك من مال، وهو آنذاك نحو 400 جنيه فلسطيني (أو ليرة فلسطينية كما كنا نقول أيضاً). وقد وازى الجنيه الفلسطيني آنذاك الجنيه الاسترليني وربما زاد عنه قليلاً. ظلت إقامة أمي وأخي بالمسجد، لكن في "النهارات" كنا نخرج معاً لنتنزه في بستان جعلته البلدية حديقة للعامّة. أمّا طعامنا فلم يختلف عما تقدمه المطاعم الكثيرة الموجودة هناك، والتي تبيع الفلافل والفول والحمص التي كنا نشتريها ملفوفة بالأرغفة.

في أثناء إقامتنا بعكا جعلنا نأكل ونتجول ونمضي "النهارات" كأننا في نزهة أو في رحلة. أذكر من أيام عكا تلك سيرنا أنا وأمي وأخي رزق في الطرق الذاهبة بنا إلى البستان، كما أذكر شوارع المدينة التي أعرفها والتي كنت أتباهى بمعرفتي بها أمام أمي. كانت تلك نزهة أو رحلة، إذ لم نشك في أن إقامتنا ستطول. أمّا وجهة انتقالنا من عكا، بحسب ما كنا نفكر ونتخيّل، فلم تكن إلاّ وجهة الرجوع إلى حيفا، وربما بالعبّارة ذاتها التي حملتنا إلى هنا. وكان لشعورنا هذا ما يزكيه ويؤكده إذ شاع بيننا في أثناء خروجنا، كما في أثناء إقامتنا بعكا، أن خروجنا من حيفا يمهّد السبيل لدخول القوات العربية التي سيربك اقتحامها وجود العائلات العربية في المدينة. خمسة عشر يوماً على الأكثر، كان يقال لنا. أمّا أمي فلم يظهر عليها القلق الشديد على أختي وأخواي، الضائعين بالنسبة إلينا.

لم نشعر بأي خوف من احتمال اقتحام عكا وسقوطها. أمضينا فيها خمسة عشر يوماً كذّب آخرها توقعاتنا، إذ بدأ آنذاك الاقتحام اليهودي لها. بدأ التقدم في موقعين هما تل الفخار، وهو هضبة مطلة على المدينة، وموقع مركز البوليس الذي أتاه اليهود من الشمال حيث نهاريا التي كانت لهم. بسقوط الموقعين، دبَّ الذعر في أهل المدينة وبدأ بعضهم الفرار من خلال سور المدينة في اتجاه الشرق حيث تنتشر قرى عربية. كان الذين قصدوا الميناء للفرار بحراً قليلين، إذ لم يكن يرسو هناك مراكب كثيرة وعبّارات، كما هي الحال في حيفا. نحن سلكنا طريق البرّ شرقاً ماشين على الأقدام مدة يومين ونصف يوم حتى بلغنا المشيرفة، وهي مركز الحدود البريطاني، وكنا نسميها الناقورة الإنكليزية. كان الجنود البريطانيون ما زالوا معسكرين هناك، في المركز، وسمحوا لنا بعبور الحدود إلى لبنان، سيراً على الأقدام طبعاً. كنا في قافلة

طويلة إذ سبقنا أشخاص كثيرون إلى الخروج، كما أن أشخاصاً آخرين لحقوا بنا وكنا نرى بعضهم يتقدمنا على الطريق.

في مركز الحدود اللبناني منعنا الأمن العام اللبناني من العبور، فافترشنا الأرض بالمئات، هناك عند نقطة الحدود، مدة ثلاثة أيام. كنا نشتري ما نحتاج إليه من الدكاكين القائمة في البلدة القريبة التي اسمها الناقورة. في آخر هذه الأيام الثلاثة قدم إلينا صحافي صار يحادثنا ويلتقط صوراً لنا. ثم ما لبثنا أن سمعناه بعد ذلك يرفع صوته برجال الأمن العام قائلاً لهم أنه سينشر ما شاهده في الصحف وسيصل كلامه إلى رئيس الجمهورية [بشارة الخوري آنذاك] ورئيس الحكومة [رياض الصلح]. هذا الصحافي اللبناني لم نعرف اسمه قط ولم نعرف لأي صحيفة كان يعمل، وحين رحل من الناقورة كان ما زال على عضبه وتوعّده. لكن حملته تلك أثمرت، إذ في مساء ذلك اليوم قدم جنود من الجيش اللبناني وأذنوا لنا في عبور الحدود، لكن في مجموعات صغيرة لا يزيد عدد أفراد كل منها على عشرة أشخاص.

استأنفنا المسير فعبرنا البيّاضة الواقعة بعد الحدود. لا أعرف كيف تفرّق الناس. خرج الناس تباعاً من الحدود، لكن أنا وأمي وأخي ظللنا نمشي حتى بلغنا مشارف صور بعد نحو يوم ونصف يوم من المسير. هناك، خارج المدينة، توقفنا كي نرتاح قبل الدخول وكنا في مجموعة من نحو ثلاثين شخصاً. كنا أُنهكنا من المشي فاستظلينا ببناء في قيد الإنشاء ما لبث صاحبه، واسمه الحاج علي بحسون، أن أتى وسمح لنا بأن نبقى في هذا البناء قدر ما نشاء. كان البناء يعدّ كي يصبح دكاكين، لذلك كانت حُجُراته متلاصقة الواحدة بجانب الأُخرى.

توزعنا الدكاكين، ستة أشخاص أو سبعة أو أكثر في الدكان الواحد. نحن، في حجرتنا، تشاركنا في الإقامة مع الحاج عبدالله أبو داهش، وهو خالي، وقد التقيناه وزوجته وأولاده الخمسة على الطريق قبل وصولنا. في الدكاكين حيث أقمنا لم يكن هناك حمامات ولا مراحيض فكنا نقصد البساتين لقضاء الحاجة، كما كنا نذهب إلى منطقة البص لنجلب ماء بالجرار التي اشتريناها من فاخورة كان موقعها قريباً، كما اشترينا بطانيات وفرشاً وطناجر و"بوابير" للطبخ وأباريق للشاي من المدينة التي صرنا نقصدها لشراء جميع حاجاتنا.

بقينا في تلك الدكاكين التي تقفل ليلاً بأبواب الحديد الجرارة فترة ستة أشهر تقريباً. وكان مضى على وجودنا هناك شهران حين أتى من بلّغنا أن أخي أحمد

موجود في طرابلس مع زوجته وأولاده، وأخي حسن موجود في صيدا مع زوجته وابنه. أنا وأخي رزق ذهبنا إلى صيدا بعد ذلك بأيام، ثم إلى طرابلس، للقاء أخواي وإبلاغهما أننا مقيمون حيث نحن بالقرب من صور. أمّا أختي حسنية فعرفنا أنها ذهبت مع زوجها إلى دمشق. ذهبت أنا وأخي لزيارتها هناك بعد أن استقرت أحوالنا.

في أثناء أشهر إقامتنا الستة بمُلك الحاج علي بحسون ظلت تصلنا الأخبار متواترة عن دخول الجيوش العربية فلسطين. حيناً، كنا نسمع أن الجيش المصري وصل إلى هذه المدينة، نسمع بعد ذلك أن الجيش الأردني حاصر هذه المدينة نفسها. هذا وكنا نفرح دائماً بهذه الأنباء التي، إن داخلها خطأ، قلنا إنه نتيجة إبلا غ الخبر ونقله. الهدنة الأولى التي فرضتها هيئة الأمم أوقفت تقدم الجيوش العربية، لكن حين اندلع القتال من جديد تقدم اليهود وأسقطوا الجليل واللد ومدناً وقرى كثيرة أُخرى. وحين بدأ التفاوض في جزيرة رودس للهدنة الثانية فقدنا الأمل بالعودة، وقلنا إننا سنبقى خارج فلسطين.

رافق معرفتنا هذه بطول بقائنا نفاد ما كان معنا من أموال. أنا لم أجد عملاً في صور، وكذلك أخواي أحمد وحسن لم يجدا عملاً في صيدا وطرابلس. كانت الحكومة اللبنانية، بعد نحو سبعة أشهر من وصولنا، قد وزّعت علينا طحيناً ونقوداً بلغت ثلاث ليرات لبنانية أو أربعاً للشخص الواحد. عقب مبادرة الحكومة اللبنانية، جاءت مبادرة من الصليب الأحمر الدولي الذي ظلّ مدة تقل قليلاً عن السنة يوزّع علينا حصصاً من الطحين والسكر والأرز والزيت والجبن، كما وزع علينا بطانيات أيضاً في مطلع مبادرته تلك. الثياب كنا نشتريها من صور التي كنا نرى في أسواقها فلسطينيين كثيرين.

انتقلنا من الدكاكين بعد ستة أشهر، إذ أتانا الحاج علي بحسون، رحمه الله، وقال لنا معتذراً أنه يريد إكمال البناء. وكي لا يتركنا من دون مأوى بنى لكل عائلة منّا، على نفقته، برّاكية من ألواح الزنك أقيمت على أرض مشاع في جوار أرضه. هناك، بعد ستة أشهر من انتقالنا إلى البراكيات، تمكنت من الحصول على عمل. كان ذلك في البساتين التي كنت أقف فيها حاملاً رفشي وأمامي كومة الزبل العالية أملأ منها القفف التي تتتالى أمامي لتحملها البنات بعد ذلك على رؤوسهن. كانت البنات العاملات جميعهن فلسطينيات. أمّا أجر الواحدة منهن فليرة لبنانية كل يوم. أنا أيضاً كنت أتقاضى الأجر ذاته. كانت الليرة، إضافة إلى المواد التي بدأت الأونروا توزيعها

علينا، تقيتنا. في تلك الأيام كان سعر أوقية اللحم، كما أذكر، أربعين قرشاً، أي ما يساوي خُمسي أجري اليومي.

في الشغل كان صاحب المشروع أو الملتزم يشير علينا في نهاية كل يوم أين يجب أن نتجمّع غداً، أي أن كلاً منا لم يكن ضامناً عودته إلى شغله في اليوم التالي. ثم إن موسم تسميد الأرض، وهذا ما كنا نشتغل به، لا يطول كثيراً وربما سيكون علينا الانتظار شهوراً قبل أن يحين موسم القطاف الذي قد نعمل فيه أيضاً. كان ذلك متعباً ومتقطعاً لجميع من عملوا فيه. لكن، على الرغم من ذلك، توجه أكثر فلسطينيي المخيمات إلى العمل في البساتين. عند مجيئنا، وفي فترة إقامتنا الأولى، أذكر أن الأرض كانت تزرع بزراعات موسمية مثل زراعة الخضروات وغيرها. مع مجيء الفلسطينيين انتشرت عدوى البستنة بين أصحاب الأراضي فتحسن أجر العامل من جراء ذلك إلى ثلاث ليرات يومياً. لكن هذه الليرات الثلاث سريعاً ما انخفضت قيمتها وصارت، كما كانت الليرة الواحدة من قبل، لا تكفي قوتاً من دون حصة الأونروا التي تسندها.

كان الفلسطينيون الذين أقاموا بالمخيمات بعد نزوحهم هم الأقل حظاً من سواهم. فمنذ مجيئهم كان وجودهم كثيفاً، وهم انتشروا في مخيمات أحاطت بصور، مثل مخيم البص والرشيدية والبرج الشمالي والقاسمية والبرغلية وشبريحا. معظم سكان المخيمات هؤلاء قدم من قرى الجليل القريبة من لبنان الذي كان بعضهم يعرفه، أو يعرف تلك المنطقة الجنوبية منه، بسبب الجوار. وكان مخيما البص والرشيدية قد أقيما قبل مجيء الفلسطينيين، إذ كان يقيم بهما لاجئون من الأرمن بنت الحكومة الفرنسية لهم تلك الغرف، غرفة لكل عائلة.

الفلسطينيون في المخيمات عملوا في البساتين وما زالوا، أو ما زال أكثرهم، يعملون فيها إلى الآن. هذه الأعوام الخمسون التي أمضوها في لبنان لم تفلح في تغيير أوضاعهم وتحسينها. ما زالوا كما كانوا، محاطين بحدود المخيمات التي يسكنونها. كما أن المخيمات نفسها ظلت كما هي لأن الدولة اللبنانية تمنع إدخال مواد البناء إلى المخيمات. دائماً كان يقال إن هذا التدبير المتواصل غايته إبقاء سكان المخيمات في وضع العيش الموقت كي لا يشعروا بأنهم ينتمون إلى هناك لا إلى هنا.

إن الفلسطينيين الذين نزحوا إلى المخيمات هم الأقل حظاً، إذ يطبق عليهم ذلك المبدأ كاملاً غير منقوص. والذين تمكنوا من تعليم أولادهم أعطوا هؤلاء الأبناء فرصة

الخروج، لكنه الخروج البعيد، إلى خارج لبنان، ما دامت فرص العمل محظورة على الفلسطينيين جميعهم. هؤلاء الأبناء كان عليهم أن يعملوا في دول الخليج، مثلاً، من أجل إعالة أهلهم الباقين في قيد الحياة؛ ذلك بأن الأونروا، بعد خدماتها التي استمرت نحو أربعين عاماً، قطعت إعاشاتها وقصرتها على المحتاجين الذين لا معيل لهم.

حظّي أنا كان أفضل من حظ من أقاموا بالمخيمات. في سنة 1954، نزعنا "الزنكو" وبنينا غرفتنا باللبِن وهو الطين الممزوج بالتبن. بعد فترة انضم إلينا أخي حسن قادماً من صيدا وبنى له ولعائلته غرفة في جوارنا. كما بنينا مرحاضاً لغرفتنا. ساعدتنا وكالة الأونروا في البناء وقدمت لنا أخشاباً وألواح زنكو جديدة جعلناها سطوحاً لغرفنا.

كما أننا تزودنا المياه التي أخذت تصلنا من الشركة لقاء اشتراك سنوي ندفعه. أمّا الكهرباء فوصلتنا عندما تولّت الدولة أمرها من صاحبها في صور، وهو من آل منسى، وكان قد أقام مولِّده الضخم بالقرب من المدرسة الجعفرية قريباً من الآثار.

بعد العمل في البساتين، الذي لم تطل مدته في أية حال، اشتغلت مع صياد بجرِّ الجاروفة من الماء. كان الأجر يتراوح بين لا شيء وبين ما يصل إلى الليرتين أو حتى الثلاث بحسب ما يجود البحر به على الصياد. إنْ سُئلت عن المهنة التي عملت فيها خلال إقامتي بلبنان أقول صيد السمك الذي بقيت أعمل فيه حتى سنة 1967، أي حين صار عمري سبعة وثلاثين عاماً. في أثناء ذلك، سنة 1960، تزوجت من فايزة كامل عبد الرحمن، وهي من منطقة الزيب ومقيمة مع أهلها بمخيم البص القريب. أقمنا بالغرفة الصغيرة التي بنيناها باللبِن وأنجبنا تسعة أولاد أتبعناهم باثنين ولدا في صيدا في الغرفتين اللتين استأجرتهما بالقرب من الميناء.

خلال عملي في صيد السمك تعرفت إلى لبنانيين كثيرين، وقد عاملوني كأنني واحد منهم، لا في أوقات الصيد فقط، بل أيضاً في أوقات الراحة والتسلية حيث كنا نجتمع في المقاهي القريبة من رصيف الميناء. لكن هنا، أيضاً، كان يجب أن يُحفظ للبنانيين نوع من الحق يتميزون به. حين كنت في صور كنا، كي يتاح لنا نزول البحر، نأخذ إجازة صيد موقتة من القاعدة البحرية التي أقامها الجيش اللبناني هناك. وعندما سعينا لأن تكون هذه الإجازة بمثابة تصريح لا وجوب لختمه كل مدة، أحدث هذا الأمر جدالاً بيننا وبين الصيادين اللبنانيين زملائنا الذين كانوا يريدون أن نعمل معهم، لكن من دون إجازة. كان يجب أن يأتي أحد كي يقنع النقابة بالموافقة على

منحنا الإجازة؛ هذا الرجل كان ضابطاً كبيراً هو جميل الحسامي، وكان قائداً لمنطقة الجنوب، وقد سعى معنا لنحصل على الإجازة.

انتسبت إلى حركة فتح منذ قيامها سنة 1965. حتى ذلك التاريخ بقيت أعتقد أن انتصار اليهود علينا كان بسبب أخطاء ارتكبناها نحن، وأن الأمور ربما تعود إلى سويتها إن جرى تلافي هذه الأخطاء. ثم إننا نعلم أن اليهود يُرهَقون أمام الضغط الذي قد يأتيهم جرّاء العمليات العسكرية. عملتُ عسكرياً في فتح وكنت تابعاً للقطاع الغربي، وأقوم بعمليات عسكرية تحت إشرافه وتنظيمه. في أواخر سنة 1967، شاركت في عملية ضرب المصفاة في حيفا، مدينتي. كما شاركت في عمليات أُخرى، اعترضتنا الزوارق الإسرائيلية في إحداها فضربناها بـ الآر. بي. جي. من قاربي الصيد اللذين كانا وسيلتنا للوصول إلى الأرض المحتلة. بعد إطلاق النار علينا أُصيب أحد القاربين وغاص في الماء، والمقاتلان اللذان كانا على متنه، أحدهما من آل عطية من البص والآخر اسمه حمادة القر، كادا يغرقان إذ إنهما لا يجيدان السباحة، فنزلت إليهما لإنقاذهما. الرجلان توفيا الآن، أولهما بعد عملية الزوارق بعامين حين انفجرت فيه رزمة ديناميت كان يعدّها لصيد السمك، والثاني توفي سنة 1996 بانفجار صاروخ كان يفككه في مخيم عين الحلوة.

مع مجيء المقاومة تحسنت أوضاع الفلسطينيين في لبنان، إذ إنها أمنت عملاً لكثيرين منهم في قواتها وأجهزتها المتعددة. أنا تفرّغت للعمل معها، تاركاً الصيد، منذ سنة 1967، أي قبل حلولها بلبنان، وقد تدرجت في العمل العسكري حتى صرت نقيباً في قواتها. وهي، المقاومة، قوّت معنويات الفلسطينيين وخصوصاً بعد مجيئها إلى لبنان سنة 1969، فصارت المخيمات معها حصوناً قوية بعد أن كانت مأوى للاجئين ضعفاء. صار وجودها يشكل أملاً بالعودة، لكن أيضاً قوة تحمي الفلسطينيين في الوقت الذي يسبق أوان العودة. ذلك، طبعاً، انتهى كله بخروج المقاومة من لبنان، إذ عادت الحال إلى ما كانت عليه سابقاً، من دون أي تغيير. بل إن الأحوال، بحسب ظني، تغيرت نحو الأسوأ إذ لو استمر الزمن بنا، كما كان سنة 1969، فلربما قطعنا مسافة عن تلك البداية التي ابتدأناها في سنة 1948.

بعد رحيل المقاومة كان على الفلسطينيين أن يبدأوا بداية جديدة بعد مضي أعوام القوة الثلاثة عشر. الآن أعتبر نفسي متقاعداً من عملي في المقاومة، الذي أتقاضى منه تعويضاً شهرياً هو 130 دولاراً أعيل به خمسة أولاد ما زالوا مقيمين

معي بالبيت الذي انتقلنا إليه في صيدا القديمة. إن البيت القديم، مبني منذ مئات الأعوام وقد هجره سكانه، مع سكان بيوت صيدا القديمة الأُخرى، كي نقيم به نحن.

أعيش في بيت بحارة الكشك في صيدا القديمة في حال من الاكتفاء الذي هو تحت خطّ الفقر. لديّ ولد في كندا يساعدني بين وقت وآخر. من أهلي وإخوتي الذين نزحت معهم عن فلسطين لم يبق أحد حيّاً سواي. أبي مات هناك كما قلت، قبل قرار التقسيم، ودفنّاه في مقبرة "بلد الشيخ" وهي بلدة تقع شرقي حيفا، كان أهل المدينة يدفنون موتاهم فيها إذ لم تعد مدافنها تتسع لموتى جدد. الوالدة توفيت سنة 1982 عن نحو 85 عاماً. أخي حسن توفي سنة 1983، بعد أمي بعام، وكان مقيماً بوادي الزينة ولم ينجب إلاّ ابناً واحداً يعمل الآن مدرساً في السعودية. أخي أحمد الذي كان في طرابلس توفي فيها سنة 1986. أخي رزق، الصغير، توفي في آخر تلك السنة نفسها، وقد عانى كثيراً في حياته إذ صدمته سيارة على طريق البص ألزمته القعود سبعة أعوام ظلّ من بعدها ضعيفاً وفقيراً. أختي حسنية التي سلكت مع زوجها، سنة النزوح، الطريق التي أخذتها إلى دمشق، توفيت هناك سنة 1983 بينما كنت معتقلاً، أنا وابني زيد، في معتقل أنصار، وهي لم تنجب أولاداً.

لم يعد أحد من أهلي حياً سواي. في سنة 1995، توفيت زوجتي أيضاً وأنا أعيش مع أولادي الخمسة، الباقين عندي، من دونها. الآن اعتقد أن لا مجال لرجوعنا إلى فلسطين. لا أقصد جيلي، طبعاً، لكن أقصد أولادي وأولاد أخواي الذين لم يعش أحد منهم فيها. الآن هم متوزعون بين كندا والسعودية والخليج في إقامات موقتة ـ لا أعرف إن كان يجب أن أستثني المقيمين
بكندا ـ في انتظار العودة، الموقتة أيضاً، إلى لبنان.

اعتقد أن لا مجال لرجوعنا إلى فلسطين. بعد موتي أنا، وموت الرجال الكبار الذين ألتقيهم هنا في صيدا، لن يتذكر أحد ماذا كان هناك في حيفا أو في مدن فلسطين الأُخرى. الحاجّة جميلة الخطيب التي كانت مقيمة بصيدا ذهبت إلى فلسطين في آخر الستينات بعد أن أُعطيت تصريحاً. قالت بعد عودتها أنها شاهدت بيتنا موجوداً لكنه متروك مهمل. قبل موتها في الثمانينات، ذهبت مرة ثانية، وقالت بعد عودتها إن بيتنا لم يعد موجوداً. لقد أزالوه. ما زلت إلى الآن محتفظاً بسند البيع بالنسختين العربية والعبرية اللتين بموجبهما انتقلت ملكية الأرض من أبراهام

خلفون إلى أبي. كما ما زلت محتفظاً بخريطة بنائه وبإيصالات الضرائب التي كان يدفعها والدي إلى البلدية كل سنة حتى سنة 1947؛ السنة التي سبقت نزوحنا. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf